العلمانية في المرجعية العربية

مخلص السبتي

1. مرحلة استيعاب المفهوم:

حينما دخل مفهوم "laïcité" العالم العربي لأول مرة سنة 1827 م معبرا عنه بالمدنية أحيانا وبالعلمانية أحيانا أخرى[[1]](#footnote-1) وجد قبولا من لدن العلماء، إذ تم النظر إلى العلمانية على أنها تشترك مع الإسلام في كون (الأمة هي التي تولي الحاكم، وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك في مصلحتها)[[2]](#footnote-2).

ويقرر محمد عبده بثقة أن:(الحاكم في الإسلام حاكم مدني من جميع الوجوه، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الأفرنج ثيوكراتيك أي سلطان إلهي... فليس للخليفة، بل ولا للقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية....فليس في الإسلام سلطة دينية... بل إن قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من الأساس هو أصل من أصول الإسلام)[[3]](#footnote-3)،ولم يكن هذا يعني عند محمد عبده إلغاء مصدرية الشريعة، بل تفعيل وجودها، ونرى في برنامج الحزب الوطني المصري الذي صاغه محمد عبده نفسه[[4]](#footnote-4)التأكيد على مبدأ اللاإكراه وعلى المساواة بين الجميع مهما اختلفت أديانهم ومعتقداتهم، إذ الحقوق التي تكفلها الدولة للمسلمين تكلفها لغيرهم من اليهود والنصارى وسائر (من يحرث أرض مصر ويتكلم لغتها)[[5]](#footnote-5).

وهذا المفهوم نفسه هو الذي تضمنه مصطلح (اللادينية) عند محمد عبده، فصاغ برنامج حزبه على أساسه، فتم التنصيص على أن الحزب (حزب سياسي لا ديني، وأنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب وجميع النصارى واليهود... لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ، ويعلم أن الجميع إخوان، وأن حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية).[[6]](#footnote-6)

وقد كان لرأي محمد عبده دعاة من بين تلاميذه لعل أشهرهم الزعيم سعد زغلول الذي رفع أثناء ثورة 1919 شعار: (الدين لله والوطن للجميع) اعتبارا من أن التوجه بالعبادة والانقياد الديني يجب أن يكون لله وحده (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)[[7]](#footnote-7)، و(ألا لله الدين الخالص)[[8]](#footnote-8)،أما (الوطن للجميع) ،فباعتبار أن الأرض كلها لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم (والأرض وضعها للأنام)[[9]](#footnote-9).

وهكذا ، تم استيعاب الفكر "العلماني – المدني" في بداياته الأولى من طرف علماء وسياسيين وطنيين أدركوا مدى التقارب الذي يمكن إحداثه وتوظيفه بين الفكرين الإسلامي والعلماني على أساس رصد أرضيات مشتركة تحمي الدين من الاستغلال غير المشروع ومن التوظيف السيئ خدمة لمصالح حكام مستبدين، أو أدعياء يمارسون وصاياتهم على نصوصه وأحكامه.

1. مرحلة أدلجة المفهوم:

وقد كان من المنتظر أن يتخذ التاريخ مسارا آخر، فتواصل "العلمانية" سيرها السليم الذي بدأته مع محمد عبده وسعد زغلول في اتجاه المحافظة على معتقدات المجتمع، وفي اتجاه الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص، لكن تم استخدامها استخداما إيديولوجيا يناقض الغايات التي جاءت من أجلها ، فسرعان ما وظفت في مواجهة الإسلام دينا وثقافة وتراثا، واستخدمت سريعا لضرب الاستقرار الروحي والاندماج الاجتماعي، وعمد بعض الحكام والسياسيين وكثير من الإعلاميين إلى إسقاط تعامل الغرب مع المسيحية، على واقع غير الواقع الغربي، وعلى دين غير المسيحية، فكأنه من اللازم للعلمانية أن تنتقد الإسلام هنا كما انتقدت المسيحية هناك، ولم يتم الانتباه إلى أن الإسلام كان السابق إلى انتقاد المسيحية وأربابها بالشكل الذي ساهم فيه بالنصيب الأوفر في ظهور العلمانية نفسها، أو تطورها على الأقل.

وهكذا ، وعوضا أن ينظر العلمانيون إلى الإسلام بصفته الحليف الطبيعي لهم في مواجهة ما يسمونه بالحكم بالحق الإلهي المقدس(وما يسميه هو بالشرك) وفي مواجهة الاستبداد والاستعباد ، انبرى أكثرهم في محاولات حمقاء تستهدف نقض الإسلام عقيدة وشريعة لمجرد كونه دينا، فتحولت العلمانية بذلك إلى دعوة لتغيير قيم المجتمع، وانتهت إلى أن تظهر في نظر الرأي العام المؤيد والمناهض لها على السواء بمظهر الفكر الجديد المناقض للقيم الثقافية والدينية الإسلامية[[10]](#footnote-10)،وقد كان لهذا التحول في تفسير العلمانية نتائج خطيرة في الواقع لا يدركها كثير من الباحثين في الموضوع.

فهو يعني أن السياسة العقلية الـمدنية لا يمكن أن تتحقـق إلا بإلـغاء الدين من الدولة والمجتمع وإحـلال "العقيدة العلمانية" بدل العقيدة الدينية، وليس من المفارقات أن يؤدي هذا إلى وضع يعاكس ما تستهدفه الدولة العلمانية في أصول نشأتها التاريخية في سياقها الغربي، وضع أشبه ما يكون بوضع الدولة الدينية الثيوقراطية من حيث النتائج المحصل عليها في الأخير، إذ يؤدي هذا من جهة إلى مصادرة الحريات الشخصية والمساس بحرية العقيدة، وخلق دولة استبدادية تسلطية، ومن جهة أخرى سيؤدي إلى شطر المجتمع إلى شطرين متنازعين؛ شطر إسلامي، وآخر علماني، مما سيؤدي بدوره إلى خلق فتن وأزمات داخلية تعوق تقدم المجتمع وتطوره الطبيعي، وما غاب عن أكثر المثقفين والفاعلين السياسيين إسلاميين وعلمانيين أن النزاع في كل ذلك مبني على إشكال وهمي جوهره التعارض المفتعل بين عقيدة الإسلام ومكونات العلمانية من حرية ومساواة وتفعيل للإرادة العامة.

وبهذا فالعلمانية التي كانت محل تقدير عام عند المسلمين منذ أواسط القرن التاسع عشر، والتي كان يرى فيها المصلحون التعبير المعاصر عن عظمة الإسلام من حيث سبقه إلى مفاهيمها[[11]](#footnote-11)، قد انحرفت عن مبادئها وغاياتها –في أغلب بلدان العالم الإسلامي - وغدت مشحونة بمضامين إلحادية شيوعية أو ليبرالية أو قومية تنحو أحيانا منحى عنصريا إقصائيا، ودخلت مجال النزاع الإيديولوجي من بابه الواسع، فوظفها كل فكر رافض للدين دافع به إلى المقابر والزوايا، و تم تخريب "المفهوم العلماني" تخريبا شبه كلي بإفراغه من قيم النسبية والحرية والتعددية، وبإضفاء مسحة من الإطلاقية وسلطة احتكار المعرفة عليه، وانخرط" العلمانيون " في الصراع السياسي الإيديولوجي من منطق عقدي جديد، وهكذا لا يمكن فهم حدث إلغاء الخلافة الإسلامية وإقامة دولة علمانية المظهر ثيوقراطية الجوهر على أنقاضها إلا في هذا السياق[[12]](#footnote-12)،وبذلك فحينما كتب بول بالطا "Paul Balta" سنة 1995 مشيدا بعلمانية تركيا -التي كانت يومئذ على النمط الأتاتوركي - معتبرا إياها النظام الأفضل داخل العالم الاسلامي[[13]](#footnote-13)،يحق لنا أن نتساءل عن أي علمانية يتحدث؟ هل العلمانية التي تثبت الإرادة العامة أم التي تنفيها؟

فإن كانت التي تثبت، فمن حقها أن ترفع الأذان-باسم الإرادة العامة -وتنشر تعاليم الشريعة وتفعلها في المجتمع، وإن كانت تلك التي تنفي ، فمن حقنا عليها - وباسم الإرادة العامة أيضا-أن تزول، لأنها قد تكون حقا يراد به باطل، وشعارات ترفع وتراتيل تتلى ، دونما أثر في الواقع محمود .

والحاصل أنه بقدر ما كانت العلمانية الغربية اكتشافا إيجابيا مبدعا بما أعطته من فرص سياسية لإنهاء الصراعات والحروب الناتجة عن ضعف حيادية الدولة إزاء معتقدات مواطنيها، بقدر ما أصبحت في العالم الإسلامي عنصر إفساد للوعي السياسي وأداة إشعال للصراعات الذاتية بين النخب الاجتماعية[[14]](#footnote-14)، فأضحت بفعل سوء التوظيف جزء من المشكل بعد أن كانت جزء من الحل.

إن المعركة التي يخوضها الكثير من العلمانيين في العالم الإسلامي ،والقائمة على الاعتقاد بأن الدين هو مصدر فساد السياسة والدولة تضرب تماما في عكس الاتجاه المطلوب، فتصرف الانتباه عن أصل المشكل الحقيقي إلى مشكل وهمي يغذي أسباب التفكك الاجتماعي.

وبهذا لفظت المجتمعات الإسلامية العلمانية، لأنها جزء من تاريخ غير تاريخها، ولأنها –وهذا هو الأهم- لم تتطور في اتجاه حل إشكاليات الواقع- وإن كان تاريخها يؤهلها لذلك- بل في اتجاهات أخرى تلبي حاجات الصراع السياسي الداخلي من جهة ،وأطماع الاختراق الثقافي من جهة أخرى.

.

1. - أول من استحدث كلمة علمانية بالعربية هو إلياس بقطر واضع المعجم الفرنسي العربي الصادر سنة 1828، وفرضت الكلمة نفسها لأول مرة في معجم عربي عربي هو المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية في مصر أواخر الخمسينات من القرن العشرين، راجع الموسوعة الفلسفية العربية...د.معن زيادة معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى -1988، ص: 914. [↑](#footnote-ref-1)
2. - الأعمال الكاملة لمحمد عبده، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة، طبعة بيروت 1972 ج: 3، ص: 233. [↑](#footnote-ref-2)
3. - المرجع السابق: 3/233. [↑](#footnote-ref-3)
4. - وذلك في دجنبر 1881م [↑](#footnote-ref-4)
5. - محمد عمارة، الإمام محمد بعده مجدد الإسلا م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981، ص: 95. [↑](#footnote-ref-5)
6. - المرجع السابق، ص: 96. [↑](#footnote-ref-6)
7. - سورة البقرة الآية:193. [↑](#footnote-ref-7)
8. - سورة الزمر الآية: 3. [↑](#footnote-ref-8)
9. - سورة الرحمن الآية: 10، وراجع محمد عمارة، الإسلام والسياسة، دار التوزيع والنشر الإسلامي 1993 ص:76. [↑](#footnote-ref-9)
10. - انظر برهان غليون، نقد السياسة ص:361. [↑](#footnote-ref-10)
11. - المرجع السابق، ص: 415 [↑](#footnote-ref-11)
12. - تمت محاولات إقصاء الدين عن الدولة في تركيا على يد كمال أتاتورك ابتداء من نونبر 1922 تاريخ خلع السلطان محمد السادس، بعد ذلك تم لأتاتورك حذف البند السادس من الدستور الذي ينص على إسلامية الدولة، كما تمت محاصرة الإسلام واللغة العربية وتدريسهما، وفي وصفنا لدولة أتاتورك بالدولة الثيوقراطية إشارة لاستخدامها نفس آليات دولة الإكليروس من حيث صدورها عن تفكير مطلق لا يقبل النسبية ولا التعددية، ومن حيث تولي الدولة فيها فرض " العقيدة " العلمانية بالقوة على الجميع. [↑](#footnote-ref-12)
13. - - Paul Balta «l’islam» le monde, Editions 1995 P:124 [↑](#footnote-ref-13)
14. - يرى برهـان غليون أن مـعارك العلمانيـة في العـالم الاسلامـي اليوم هـي جهاد غـير عـدو ، بــل - وفي أحيان كثيرة - جهاد في صديق، انظر بتفصيل : برهان غليون نقد السياسة، ص:365. [↑](#footnote-ref-14)